الفصل الثالث

أساليب وأهداف الحركة الشعوبية

oneikan.com

obeikan.com

الفصل الثالث

أساليب وأهداف الحركة الشعوبية

□ ■ □ ■

أولا : أساليب الحركة الشعوبية :

الشعوبية مجموعة مواقف متحدية يدفعها الوعي حينًا فتكون حركة منظمة ، ويدفعها الحقد والحسد حينًا آخر فتكون نزعة عدائية غير منظمة ، ومن متابعة نشاط الشعوبية بمظهريها الديني والعنصري يمكننا أن نقرر أن الشعوبية الدينية كانت حركة منظمة فقد تظاهرت بالإسلام وعملت على هدمه من الداخل وتوزعت إلى فرق وحركات كثيرة إمكانا في التستر والاختفاء ، وكانت تنظيماتها مركزة تجلت في التعليمات التي كانت تصدرها لدعاتها فقررت أن من شروط الداعي لدعوتها (أن يكون عارفًا بالوجوه التي تدعى بها الأصناف فليست دعوة الأصناف من وجه واحد بل كل صنف من الناس وجه يدعي منه) [1] ، ولا شك أن مثل هذه التعليمات لا يمكن أن تصدر إلا من جهة منظمة لها خبرتها وتجاربها في مجال التنظيم والدعاية ، وأن هناك عملية إعداد خاصة للدعاة من أجل أن تكون لهم القدرة لمعرفة الناس وكيفية التأثير عليهم بعد الوقوف على تكوينهم الفكري والديني والخلقي وفي ذلك ينتقل البغدادي على لسان أحدهم (فمن كان مائلا للعبادات حمل على الزهد والعبادة ثم سأله عن معاني

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٨٠ـ ١٨١ .

العبادات وعلل الفرائض وشككه فيه ، ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له: العبادة بله وحماقة وإنما الفطنة في نيل اللذات ... ومن رآه شاكا في دينه أو في المعاد والثواب والعقاب صرح له بنفي ذلك وحمله على استباحة المحرمات) [1] .

ولقد وجدت الفرق الغالية في التظاهر بالإسلام ستارا لنشاطها فوضعت آراءها ومبادئها على أسس من الدين وفسروا آيات من القرآن تفسيرا يتناسب وأهدافهم ومعتقداتهم فكان الحلول والتناسخ تأويلًا لقوله: تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (التحريم : ١٢) فقالوا : «إن عيسى روح القدس وأن روح القدس هو الله» ، وعلى هذا الأساس أعلن عبد الله بن سبأ :«أن عليا إله الخلق» [2] ، وقال: «العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدًا يرجع» [3] .

وفكرة البداء كانت تأويلا لقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ و (الرعد : ٣٩) قد وجدت الفرق الغالية في الالتفاف حول آل البيت ستارًا كثيفًا لحركتها فنجد أن معظم الفرق الغالية قد اتخذت أحد أفراد آل البيت وجعلته محورًا لنشاطها وغلوها وقد كشف الغلاة أسباب التفافهم حول آل البيت فقالوا : (إنا إن أظهرها رأينا الذي نعتقد .. رمينا بالكفر والزندقة وقد وجدنا أقواما يتحلون حب علي ويظهرونه ثم يقعون بمن شاءوا ويعتقدون ما شاءوا ويقولون ما شاءوا فنسبوا بذلك إلى الترفض فلم نر لمذهبنا أمرا ألطف من انتحال هذا الرجل ثم نقول ما شئنا

(١) المصدر السابق ص١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) الإسفراييني : التبصير في الدين ص٢٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٣ ص٥٩ مطبعة التحرير القاهرة ١٣٠٣ هـ .

ونقع بها شئنا فلأن يقال لنا رافضة أحب إلينا من أن يقال زنادقة كفار وما على عندنا أحسن حالًا من غيره ممن نقع بهم) [1] ، ولقد حقق هذا الولاء الكاذب نجاحا لحركة الغلو ، فقد انخدع به عدد من المسلمين فحينما أعلن عبد الله بن سبأ غلوه في الإمام علي والأئمة من بعده وادعى أن الأئمة آلهة لأن الجزء الإلهي يحل فيهم [2] قرر الإمام علي رضي الله عنه حرقه، فتنادي الناس (يا أمير المؤمنين أتقتل رجلًا يدعو إلى حبكم أهل البيت وإلى ولايتك والبراءة من أعداءك) [3] وهؤلاء الذين تنادوا كانوا فريقين فريق منخدع بولاء ابن سبأ المزيف ، وفريق آخر كان على اتفاق مسبق معه وكان يدرك ما يريد فصاح لينقذ ابن سبأ من الموت .

والباطنية وهي من أوسع وأخطر الفرق الغالية ضمت إلى صفوفها فرقا غالية أخرى [4] ، وجدت في الولاء المصطنع لآل البيت حماية لها فأعلنت عن رأيها في هذه العبارة (فنحن نطمع في أبطال دينهم إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم فليس الطريق إلى إنشاء دعوة في الدين والانتماء إلى فرقة منهم .. فتناصروا وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر الصادق) [5] .

ومما يدل على تنظيمات الباطنة تعلياتها التي كانت تصدرها لدعاتها ومنها قولهم: (فمن رآه الداعي مائلا إلى أبي بكر وعمر مدحهما عنده وقال : لهما حظ في تأويل الشريعة .. فإذا سأله الموالي لأبي بكر وعمر عن التأويل

(١) الدارمي : كتاب الرد على الجهمية ص٩٨ ـ ٠٩ .

(٢) انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٨ .

(٣) النوبختي : فرق الشيعة ص٢٢ . طبعة النجف ١٩٣٦م .

(٤) انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٧٠ ـ ١٧١ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك القسم الثاني من الجزء الخامس ص١١٠ .

المذكور لأبي بكر وعمر أخذ عليه العهود والمواثيق في كتمان ما أظهره له ، ثم ذكر له بالتدريج بعض التأويلات فإن قبلها منه أظهر الباقي وإن لم يقبل منه التأويل الأول ربطه في الباقي وكتمه عنه) [١] .

وقد وجدت الزندقة في التظاهر بالإسلام وقاية لها ، فتظاهرت المانوية بأداء بعض الفرائض الدينية لا سيما تلك التي لها شبه بين بعض طقوسهم والشعائر الإسلامية كالصلاة والصوم لستر مانويتهم ، كما أن أصحاب الديانات الثنوية الأخرى وجدوا في المانوية ستارًا لآرائهم فانخرطوا في صفوفهم ليحققوا من خلال ذلك أغراضهم المعادية للإسلام [٢] .

وقد تظاهرت عدد من مشاهير الزنادقة بأداء الشعائر الإسلامية ومن هؤلاء عبد الكريم بن أبي العوجاء على شهرته بالزندقة ذهب إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج فراه الإمام الصادق «عليه السلام» فسأله مستغربا (ما جاء بك إلى هذا الموضع فيجيب ابن أبي العوجاء ـ عادة الجسد وسنة البلد ـ) [٣] ، وكان صالح بن عبد القدوس يمثل الزنادقة في مناقشاتها (يصلي صلاة تامة الركوع والسجود فيقل له : ما هذا ومذهبك معروف؟ قال : سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد) [٤] .

وقد وجد الزنادقة في التظاهر بالمجون وسيلة لستر معتقداتهم وآرائهم وأسلوبًا ناجحًا للهجوم على الإسلام فقد اشتهر عدد من مشاهير الزنادقة بالمجون فكان (حماد عجرد وحماد الراوية وحماد الزبرقان ويونس بن فروة

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٨١ .
(٢) انظر الدوري : العصر العباسي الأول ص١١٠ ـ ١١٢ والجذور التاريخية للشوبية ص٢١ .
(٣) الكليني : أصول الكافي ج٣ القسم الأول ص١٩ ـ ٢٠ .
(٤) المرتضي : أمالي المرتضي ج١ ص١٤٤ .

وعلي بن خليل ويزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم بن زنقطة ومطيع ووالبة بن الحباب وإبان بن عبد الحميد وعمارة بن حمزة يتواصلون وكأنهم نفس واحدة) [1] وكانت هذه المواصلة على الشراب والغلمان وأنواع المجون الأخرى في سبيل إبعاد تهمة الزندقة عنهم والحكم عليهم بالمجون دونها ، وقد أدى هذا الأسلوب إلى تحقيق مهمته حتى أن حماد عجرد قد استطاع أن يغطي به زندقته على المقربين منه كأبي نواس [2] ، ويتصل مطيع بن إياس بجعفر بن المنصور فيقف المنصور على زندقة مطيع ويقرر معاقبته فيتقدم محمد المهدي يدافع عن مطيع قائلًا: (أما الزندقة فليس من أهلها ولكنه خبيث الدين فاسق مستحل للمحارم) [3] وهكذا استطاع مطيع أن يخفي بتظاهره بالفسق والمجون ، وأن يخدع المهدي بذلك ويخفي عليه زندقته على الرغم من شهرة المهدي بمقاومة الزنادقة ، ومما يدل على أن المجون كان وسيلة للتستر أن مطيع بن إياس هذا لما حضرته الوفاة (اجتمع حوله أهله يقولون له قل يا مطيع لا إله إلا الله فلا يقول حتى إذا صارت نفسه ثغرته كر يتنفس ثم أهوى إلى الكلام فقالوا له: قل يا مطيع لا إله إلا الله تكلم كلامًا ضعيفًا فتسمعوا له فإذا هو يقول :

تهف نفسي على الزمان وفي ... أي زمان دهتني الأزمان
حين جاء الربيع واستقبل الصيف ... وطاب الكلاء والريحان [4]

وقد وجد الزنادقة أن التظاهر بالظروف وسيلة أخرى للتستر على

(١) الجاحظ : الحيوان ج٤ ص٤٤٧ تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٤٠م .

(٢) انظر الأغاني ج١٣ ص٧١ .

(٣) المصدر السابق ج١٣ ص٩٦ .

(٤) المرتضي : أمالي المرتضي ج١ ص١٤٢ .

زندقتهم كما أنهم وجدوا فيه إسلوبًا فذا لخداع الشباب وإغرائهم للدخول في أتون الزندقة وفي ذلك يقول الثعالبي: (وقد كان الجاهل الغر من أهل ذلك العصر تقفل على الزندقة وينتحلها ليعد من الظرفاء) [1]، وبعد عملية الإغراء للخداع هذه تبدأ عملية الإعداد والتثقيف للإيمان بآراء ومعتقدات الزندقة، وقد انتبه الجاحظ إلى خططهم هذه فقال: (وربما سمع أحدهم أن لا معرفة عنده ولا تحصيل له أن الزنادقة ظرفاء وأنهم عقلاء وأدباء .. ينزو نحوهم ويرى أنه متى اتهم بهم فقد قضى له بذلك كله فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه ويرفع عنده أن يزعم أنه زنديق) [2].

ومن مشاهير الزنادقة الذين اتخذوا الظرف ستارًا وأسلوبًا للخداع صالح بن عبد القدوس وأبو العتاهية وبشار بن برد وحماد الراوية وحماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وعلي بن الخليل .. وممن تقدمهم ابن المقفع وابن أبي العوجاء) [3] وأغلب هؤلاء كان قد اشتهروا بالمجون كأنهم لم يكتفوا بالمجون ستارًا فتظاهروا بالظرف إمعانا في التستر وإذا ذكرنا أن صالح بن عبد القدوس أشهر الزنادقة علما وكان لشهرته في العلم أقامه الزنادقة في الجدال عن مذهبهم [4]، وعبد الله بن المقفع الذي نقل كتب ماني وابن ديصان ومرقيون من الفارسية إلى العربية لنشر الزندقة [5]، وابن أبي العوجاء الذي صنف الكتب في نصرة الاثنين، وكذا حماد عجرد ويحيى

(١) الثعالبي: ثمار القلوب من المضاف والمنسوب ص١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) المصدر السابق ص١٣٨ ـ ١٣٩.

(٣) المصدر السابق ص١٣٨ ـ ١٣٩.

(٤) الكتبي: فوات الوفيات ج١ ص٣٩١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ج٨ ص٢٩٣ «طبعة باريس».

ابن زياد ومطيع بن إياس [1] ، إذا ذكرنا ذلك أدركنا أن الظرف كان ستارًا اتخذه هؤلاء لستر آرائهم ومواقفهم المعادية للإسلام .

ومما يؤكد أن الظرف كان إسلوبا للتستر أن يحيى بن زياد وهو من أشهر الذين عرفوا بالظرف حتى أصبحت هذه الكلمة مقرونة به (فكانوا إذا وصفوا إنسانا بالظرف قالوا هو أظرف من الزنديق يعنون يحيى لأنه كان ظريفا) [2] فلما حضرت يحيى بن زياد الوفاة (قيل له وهو يجود بنفسه قل لا إله إلا الله فقال : لم يبق إلا القرط والخلاخل ، ثم أغمى عليه فلما أعيد عليه القول فقال : وبازل تغلى به المراجل) [3] فمات يحيى ولم يقل لا إله إلا الله وهو على شهرته بالظرف .

وقد انتشر التظاهر في أيام المهدي لأنه كان جادًا في مقاومة الزنادقة وفي ذلك يقول الثعالبي: (فقد صار مثلا في زمان كثر ظرفاؤه وهو زمن المهدي)[4] .

ولكي يحقق الظرف مهمته كستارللزندقة وإسلوب لإغراء الآخرين الدخول فيها ردد الشعراء الزنادقة قول أبي نواس: «تيه مغني وظرف زنديق» [5] وقالوا: أن الظرف علامة من علامات الخفة والأدب وإن الزندقة ما هي إلا المجون والتظارف فكانوا ينشدون :

تزندق معلنًا ليقول قوم ... من الأدباء زنديق ظريف
فقد بقى التزندق فيه وسما ... وما قيل الظريف ولا الخفيف [6]

(١) المصدر السابق ج١ ص١٤٣ .
(٢) أمالي المرتضى ج١ ص١٤٣ .
(٣) أمالي المرتضى ج١ ص١٤٣ .
(٤) الثعالبي : ثمار القلوب ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
(٥) أمالي المرتضى ج١ ص١٤٣.
(٦) الثعالبي ثمار القلوب ص١٣٨ ـ ١٣٩ .

والشعوبية العنصرية لم تكن حركة منظمة لأنها لا تقوم على عقيدة معينة ولا تستند إلى أسس محدودة إنما هي نزعة عدائية تتمثل في مواقف فردية فعلية إلا أن هؤلاء الشعوبيين العنصريين حينما واجهوا مقاومة عنيفة من الجانب العربي عمدوا إلى اتباع أساليب مختلفة لستر مواقفهم المعادية ومن أجل تحقيق أهدافهم فكانوا يرفعون شعار المساواة كلما وجدوا حاجة إلى ذلك ولم ينس الشعوبية أن يدعموا شعارهم هذا بآية من القرآن الكريم تمسكوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، ولم يغفلوا أحاديث رسول في هذا المجال فتظاهروا بالتمسك بقوله ﷺ: «**المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**»[1] وقوله ﷺ في خطبة الوداع: «**يا أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالإباء وكلم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى**»[2].

وقد وجد الشعوبيون العنصريون في التظاهر بالولاء القبلي والسياسي حماية لهم ووسيلة للتهجم على العرب وحضارتهم وخير من يمثل هذا الولاء المصطنع الشاعر إسماعيل بن يسار الذي كان ولاؤه القبلي إلى قبيلة تيم بن مرة[3]، أما ولاؤه السياسي فكان ينتقل به من حزب إلى آخر (فانقطع فترة إلى آل الزبير فلما أضفت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه ... ومدحه مدح الخلفاء من ولده)[4] إلا أن عبد الملك بن مروان أدرك ولاء إسماعيل المصطنع فقال له: (يا ابن يسار إنما أنت امرؤ زبيري فبأي لسان تنشد؟)[5]، فشعر إسماعيل بالحرج إلا أنه تخلص من ذلك بأسلوب

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ تحقيق أحمد أمين وجماعته.
(٢) المصدر السابق ج٣ ص ٤٠٤.
(٣) الاصبهاني: الأغنى ج٤ ص١١٨.
(٤) الاصفهاني: الأغاني ج٤ ص١١٨.
(٥) المصدر السابق ج٤ ص١١٨.

يتناسب وقدرته على التلون، فقال مخاطبا عبد الملك: (يا أمير المؤمنين أنا أصغر شأنًا من ذلك ، وقد صفحت عن أعظم جرم وأكثر غناء لأعدائك مني وإنما أنا شاعر مضحك) [1] ، ولم يصدق إسماعيل في اعتذاره ، هذا كما لم يصدق في ولائه لآل مروان وقد كشف عن كذبه هذا فقد (استأذن على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يومًا ، فحجب ساعة ثم أذن له فدخل يبكي فقال له الغمر : ما لك يا أبا فائد تبكي قال وكيف لا أبكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب عنك فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكي فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر .. وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له : أخبرني ويلك يا إسماعيل أي مروانية كانت لك أو لأبيك قال : بغضنا إياهم امرأته طالق لأن لم يكن يعلن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح) [2] .

واستغل الشعوبيون الولاء القبلي أوسع استغلال من أجل إيقاع الفتن بين القبائل العربية وتغذية الاتجاهات وتوسيعها في سبيل تفرقة العرب وتمزيق وحدتهم فقد استغل أبو عبيدة معمر بن المثني ولاءه لقبيلة تيم قريش للهجوم على القبائل الأخرى فوضع القصص البذيئة من أجل الحط من مكانتها وتأليب القبائل بعضها على البعض الآخر [3] ، وبشار بن برد استغل ولاءه إلى قبيلة [4] عقيل للهجوم على قبائل عربية أخرى، واتخذ أبو نواس من القحطانية ولاءً ليبرر لنفسه الهجوم على القبائل العدنانية وهي نصف العرب ومنها الرسول والخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون فقال في قصيدة هجا فيها العدنانية من خلال تظاهره بالولاء

(١) المصدر السابق ج٤ ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق ج٤ ص١١٩.

(٣) انظر الصفحات السابقة المتعلقة بموقف أبي عبيدة ص٨٥ ـ ٨٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٢٤٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨.

للقحطانية :

ونحن إذا فارس تدافع بهر ... ام قسطنا على مرازبها
فأفخر بقحطان غير مكتئب ... فحاتم الجود من مناقبها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها ... إلا التجارات من مكاسبها
واهج نزارا وأخر جلدتها ... وهتك الستر عن مثالبها [1]

كما استغل الشعوبيون الولاء السياسي لضرب الأحزاب العربية بعضها بالبعض الآخر ومن أجل إيقاع الفتن والمنافسات بين الأحزاب العربية علة إضعافها والقضاء عليها فتظاهر أبو سلمة الخلال بالولاء للعلويين على حساب العباسيين من أجل إثارة الفتنة بين الجانبين لإضعافها والقضاء عليهما [2] . وعمل جعفر البرمكي على إطلاق سراح يحيي بن عبد الله العلوي وزوده بالمال والسلاح لتقويته وحمله على الثورة ضد العباسيين [3] . واستغل الفضل بن سهل مكانته عند المأمون وتظاهر بالولاء للعلويين وأشار على المأمون أن يعهد بولاية العهد إلى على بن موسى الرضا ليس حبًا في علي الرضا بل في سبيل إيقاع الفتنة بين العلويين والعباسيين لإضعافهما والتغلب عليهما [4] .

وقد اتبع الشعوبيون أساليب غير مباشرة في تحقيق أغراضهم فحينما أرادت البرامكة إحياء عبادة النار أوحوا للرشيد ضرورة إيقاد النار في الكعبة من الأخشاب النادرة ، وادعوا أن في ذلك تقديسًا وإكبارًا للكعبة، وقد أشار إلى أسلوبهم هذا البغدادي قائلا: (ولم يمكنهم إظهار عبادة

(١) ديوان أبي نواس ص٥٠٦ ـ ٥٠٨ تحقيق عبد المجيد الغزالي .

(٢) انظر المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٢١١ ـ ٢١٢ المطبعة البهية القاهرة ١٣٤٦هـ .

(٣) الطبري ج١٠ ص٨٠ ـ ٨١ الطبعة الحسينية .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص٣١٣ تحقيق مصطفى السقا وجماعته .

النيران ، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين: ينبغي أن تجمر المساجد كلها .. وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ من جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها فعلم أنهم أرادوا عبادة النار في الكعبة) [١] .

ولما أدرك الشعوبيون العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام وأدركوا أن مهاجمة الإسلام تجر عليهم تهمة الزندقة عملوا على فصل العروبة عن الإسلام بدعوى أن الإسلام دين البشرية جمعاء وأنه ليس للعرب فضل على غيرهم (فقد جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم وأسلمنا كما أسلموا .. ولم نجد الله عز وجل فضلهم علينا إذ جمعنا الدين) [٢] وبعد هذا التمهيد أخذ الشعوبيون يتهجمون على العرب ولاسيما في العصر العباسي حيث استطاعوا الفصل بين العروبة والإسلام بحيث وجدنا علان الوراق الشعوبي يؤلف (كتاب الميدان في المثالب الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها) [٣] يشغل منصبًا مرموقًا في خلافة الرشيد والمأمون حيث كان (ينسخ في بيت الحكمة) [٤] وكذلك سهل بن هارون على شهرته في معاداة العرب كان (متحققًا بخدمة المأمون وصاحب خزانة الحكمة له) [٥] وقد اعتبر الأستاذ «كولد زيهر» هذا الموقف من الخلفاء العباسيين تأييدًا للشعوبية [٦] والذي نراه أن هذا لم يكن تأييد من الخلفاء العباسيين للشعوبية بقدر ما كان مرحلة فكرية ساد خلالها الفصل بين العروبة

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص٢٨٥ . تحقيق محيى الدين عبد الحميد .
(٢) الأصفهاني : الأغاني ج١٢ ص١٣٩ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ص١٥٩ ـ ١٦٠ .
(٤) المصدر السابق ص١٦٠ .
(٥) المصدر السابق ص١٨٠ .
(٦) جب : دراسات في حضارة الإسلام الترجمة ص٨٨ .

والإسلام بحيث أصبح الهجوم على العروبة لا يعني الهجوم على الإسلام ولم يستمر هذا التأييد طويلا إذ وقف كل من الرشيد والمأمون مواقف صارمة من الشعوبيين كما سنرى في الفصل القادم .

وقد عمل الشعوبيون على إثارة الوعي لدى الفرس عن طريق الترجمة عن اللغة الإيرانية واندفع المثقفون الشعوبيون في وضع الكتب عن الحضارة الإيرانية القديمة ونسبتها إلى مؤلفين قدامى من أجل تأكيد الفرضية الشعوبية القائلة: «إن الحضارات القديمة خاصة الساسانية أساس كل شيء وأن الحضارة العربية الإسلامية لا تعدو أن تكون أخذا من تلك الحضارة» [1] ، واستهدفت الشعوبية من وراء عملية الترجمة والتأليف هذه إثارة الثقة لدى الفرس وروح التحدي من ناحية والتفاخر على العرب والحط من حضارتهم من ناحية ثانية فكانت الشعوبية تردد دوما (ومن أحب أن يبلغ من صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب كاروند ، ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب .. والمعاني الشريفة فلينظر إلى سير الملوك) [2] وقد أدت حركة الترجمة والتأليف هذه مهمتها فكان الناشيء من الشعوبيين (متى وطىء مقعد الرئاسة وصارت الدواة أمامه روى لبز جمهر أمثاله ولاردشير عهده ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع أدبه وصير كتاب مزدك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته أنه الفاروق الأكبر في التدبير) [3] .

(١) انظر الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ص٦٤ ـ ٧٢ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص١٠ .

(٣) الجاحظ : ثلاث رسائل ص٤٢ـ ٤٣ الرسالة الثانية (تحقيق بوشع فنكل) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من التفاخر بآثار الفرس بل طعنوا في حضارة العرب ومعالمها ولما كان القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه ثم بتكذيب الأخبار ـ أي التأريخ ـ وتهجين نقل الآثار) [١] .

وإلى جانب هذا لم يهمل الشعوبيون إثارة الحقد على العرب والكراهية وتشويه حضارته فخاطبوا العرب بقولهم: (ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم) [٢] وعمدوا إلى وضع كتب المثالب في الحط من مكانة العرب وكانوا يعمدون إلى بعض الصفات الشاذة التي ظهرت في فترة معينة عند قبيلة فخذ فأذاعوها باعتبارها صفة عامة للعرب جميعًا ، فوأد البنات مثلا كان لأسباب معينة وحصل لفترة قصيرة سبقت ظهور الإسلام وذلك في فخذين من قبيلتي ربيعة وتميم [٣] تحدثت الشعوبية عن ذلك باعتباره صفة عامة عند كل العرب من غير أن تفطن إلى ما يحدث من اعتراض على هذا الادعاء إذ لو كانت العرب عامة تئد بناتها بصفة مستمرة فمن أين جاء هؤلاء العرب الذين كانوا أيام الرسول ؟

وقد عمدت الشعوبية العنصرية إلى فرض الفرضيات الغربية من أجل إصدار الأحكام القاسية على العرب فادعت (فإن منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلى أربعة : هودًا وصالحًا وإسماعيل ومحمدًا ، ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع) [٤] وافترضت الشعوبية أن الفرس أحرار والعرب عبيد بفرضية لا نصيب لها من الصحة فزعمت أن الفرس أولاد

(١) الجاحظ : ثلاث رسائل باعتناء يوشع فنكل ص٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص١٠ .
(٣) انظر الألوسي : بلوغ الأرب ج١ ص١٤٠ .
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص٤٠٥ تحقيق أحمد أمين .

سارة الحرة أما العرب فأولاد هاجر الأمة دون أن تقدم دليلًا واحدًا على ادعائها هذا .

كما عملت الشعوبية العنصرية على إشراك الشعوب الأخرى في المعركة ضد العرب فكانت تفاخر بجميع الأمم وبآثارها على حساب العرب من أجل توسيع المعركة المعادية للعرب وإشغالهم في أكثر من ميدان ومع أكثر من شعب فقالت: (فهذه الفرس ورسائلها وخطبها .. وهذه يونان ورسائلها وخطبها وحكمها ، وهذه كتبها في المنطق .. وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها وسيرها وعللها [1] وحينما تفاخر الجيهاني الشعوبي لم يفاخر بحضارة الفرس فحسب بل تفاخر بحضارات أخرى فقال: (ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة ولا الطب ولا العلاج ولا ما يجري في مصالح الأبدان ويدخل في خواص الأنفس) [2] ، وعندما افتخرت الشعوبية على العرب في مجال الحكم زجت شعوبا كثيرة في معركتها فقالت: (فإن لنا ملوك الأرض كلهم من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي سخرت له الإنس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا . أم هل كان لأحد مثل ملك الأسكندرية الذي ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها) [3] .

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص١١ .

(٢) التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ج١ ص٨٩ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص٤٠٤ .

ثانيا : أهداف الحركة الشعوبية :

١ ـ تشويه مبادئ الإسلام وهدمها من الداخل :

نظرة إلى مظاهر الشعوبية بنوعيها ، ومن تتبع نشاطها في مواقفها وآرائها وأساليب عملها يمكن أن نقول: أن الشعوبية ترمي إلى أهداف ثلاثة ـ تشويه مبادئ الإسلام وهدمها من الداخل ، إزالة السلطان العربي وتشويه الحضارة العربية ، وإعادة السلطان الفارسي والعمل على ازدهار الحضارة الإيرانية .

يقوم الدين الإسلامي على ثلاثة أركان اعتقادية هي: (التوحيد والنبوة والمعاد .. وركن رابع هو العمل بالدعائم .. وهي خمسة : الصلاة والصوم الزكاة والحج والجهاد ..فهذه الأركان الأربعة هي أصول الإسلام والإيمان بالمعنى الخاص عند جمهور المسلمين .. ولكن الشيعة الأمامية زادوا ركنا خامسًا هو: الاعتقاد بالإمامة) [١] وأن محاربة الإسلام تعني محاربة هذه المبادئ عن طريق التشويه حينًا والهدم حينا آخر ، وقد ركزت الشعوبية الدينية هجومًا متصلًا إلى «مبدأ التوحيد» الذي هو (أصل الدين وعمود الإسلام) [٢] وقد استغلت معظم الفرق الغالية الحلول والتناسخ لمحاربة هذا المبدأ فأحلت (الله في أشخاص الأنبياء والأئمة) [٣] وجعلت منهم آلهة إلى جانب الله «سبحانه وتعالى» ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن معظم رؤساء الفرق الغالية ادعوا الألوهية بحجة تناسخ روح الله في الأنبياء والأئمة وانتقالها إليهم .

(١) محمد الحسين آل كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها ص١٠١ ، ١٠٢ «الطبعة ٩» .
(٢) الخياط : الانتصار ص٧٨ ـ ٧٩ .
(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٣٨ .

وطعنت بعض الفرق الغالية بقدرة الله «بالبداء» ونسبت من خلاله إلى الله الجهل والضعف [١] .

وذهبت فرق غالية أخرى إلى القول بالتشبيه والتجسيم من أجل الطعن بوحدانية الله فقال هشام بن الحكم وهو أحد الغلاة أن الله (سبعة أشبار بشبر نفسه وأنه ذو حد ونهاية وأنه طويل وعريض وعميق ذو لون وطعم ورائحة) [٢] ، وادعى هشام الجو اليقي وهو الآخر من الغلاة أن الله (جسم مصور بصورة إنسان) [٣] ، وزعم أن معبوده على صورة الإنسان وأن صفة الأعلى مجوف ونصفه الأسفل مصمت، وأن له شعرة سوداء وقلبًا تنبع منه الحكمة ، وزعمت فرقة اليونسية (أن الملائكة تحمل العرش والعرش يحمل الرب .. وأن الملائكة تطء أحيانًا من وطأة عظمة الله على العرش) [٤] .

وعمل الزنادقة من الثنوية على ضرب مبدأ التوحيد عن طريق تشكيك (ضعاف الغرائز في الواحد الأول من جهة التعديل وأمالوهم إلى التثنية) [٥] وحبذوا للناس عبادة الاثنين النور والظلمة [٦] . وذهب الزنادقة من الدهرية إلى نفي مبدأ التوحيد من أساسه فأنكروا (الصانع المدبر وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه لا بصانع) [٧] ورددوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

(١) انظر الصفحات السابقة المتعلقة بمبدأ البداء ص٥٦ ـ ٥٩ .
(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٣٩ .
(٣) الدهلوي : مختصر التحفة الاثنى عشرية ص١٥ .
(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص٢٤ .
(٥) البيروني : تحقيق ما للهند ص١٣٢ .
(٦) الطبري : ج١٠ ص٤٢ الطبعة الحسينية .
(٧) الغزالي : فيصل التفرقة ص١٧٣ .

وقد وجهت الشعوبية الدينية حملة قوية إلى «مبدأ النبوة» الذي (يقوم على الإيمان والاعتراف بجميع الأنبياء والرسل وأن محمدًا خاتمهم ، وأن القرآن هو دستور الإسلام لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة) [١] ، فعمدت بعض الفرق إلى استغلال التأويل للطعن في مبدأ النبوة فقالوا: (إن كل مؤمن يوحي إليه) [٢] ، وعلى هذا الأساس ادعى أبو منصور العجلي النبوة فقال: (إن الله بعث محمدا بالتنزيل وبعثه هو بالتأويل) [٣] ، واستغلت فرق غالية أخرى التناسخ لإلغاء فكرة اختتام النبوة بمحمد فقالوا :«أن روح الله التي تحل في نفوس الأنبياء .. تنتقل من نبي إلى نبي آخر بعد وفاة السابق ولا يوجد في الوقت الواحد غير نبي واحد» [٤] .

وذهب ابن الراوندي إلى نكرات فكرة النبوة من أساسها فقال :(إن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين ، إما أن يكون معقولًا ، وإما أن لا يكون معقولًا ، فإن كان معقولًا فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه فأي حاجة لنا إلى الرسول ؟ وإن لم يكن معقولًا فلا يكون مقبولًا إذ قول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حد البهيمية) [٥] وذهب محمد بن زكريا الرازي إلى ما ذهب إليه ابن الراوندي في نكران النبوة فقال: (أننا به ـ يقصد العقل ـ وصلنا إلى معرفة الباري عز وجل ، وهذا يقطع بأن النبوة أصبحت لا مبرر لها ما دمنا نعرف بالعقل كل شيء

(١) آل كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها ص١٠٦ .
(٢) الشهر ستاني : الملل والنحل ج٢ ص١٦ .
(٣) النوبختي : فرق الشيعة ص٣٨ و ٣٩ طبعة النجف ١٩٣٦م .
(٤) بدوي : من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص٢٠٧ (نقلًا عن كتاب الشهر ستاني ، الملل والنحل) .
(٥) المصدر السابق ص١٤١ «مقالة بقلم باول كروس» .

أخلاقي لأن النبوة لا تقوم بأكثر من هذا) [١] .

وبعد هذا الهجوم على مبدأ النبوة تهجم الشعوبيون على الأنبياء واعتبروهم (قومًا أحبوا الزعامة) [٢] وقالوا أنهم (سحرة ومحرفون) [٣] لا معجزة لهم وأن ما جاءوا به مخاريق وشعوذة لا يقبلها العقل [٤] .

وقد وجه الشعوبيون هجومًا قويًا إلى الكتب السماوية وادعوا أن فيها تناقضا فقال محمد بن زكريا الرازي الملحد: (فزعم عيسى أنه ابن الله وزعم موسى أنه لا ابن له وزعم محمد أنه مخلوق كسائر المخلوقات .. ومحمد زعم أن المسيح لم يقتل واليهود والنصارى تزعم أنه قتل وصلب) [٥] .

ولما كان القرآن الكريم معجزة الإسلام والإسلام معجزة العروبة فقد وجهت الشعوبية هجومًا عنيفًا إلى القرآن فقد فضل حماد عجرد شعره على القرآن وبلاغته فذكر السيد المرتضي: (أن رجلًا كان يقرأ القرآن وحماد ينشد الشعر ، فاجتمع الناس على القارئ ، فقال حماد : علام تجتمعون فو الله ما أقول أحسن مما يقول) [٦] ، وهاجم ابن الراوندي إعجاز القرآن فادعى (أن فصاحة أكثم بن صيفي تفوق فصاحة القرآن) [٧] ، ولم يقف ابن الراوندي عند هذا الحد، بل زاد على ذلك فقال: (إن القرآن كلام غير

(١) المصدر السابق ص٢٠٣ .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٧٨ .

(٣) الفرق بين الفرق ص١٧٨ .

(٤) بدوي : من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص٢٠٧ .

(٥) أمالي المرتضى ج١ ص١٣٤ .

(٦) بدوي : من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص١٢١ .

(٧) الخياط : الانتصار ص١٢ .

حكيم ، وأن فيه تناقضا وخطأ وكلامًا يستحيل) ، وأضاف متهجمًا على القرآن وتعاليمه فقال: (أتى بما كان منافرًا للعقول مثل الصلاة وغسل الجنابة ورمي الحجارة والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر والعدو بين حجرين لا ينفعان ولا يضران) [١] .

ولم يقف أمر الشعوبيين عند هذا الحد بل أخذوا يكذبون على الرسول محمد ، ويضعون الأحاديث الملفقة على لسانه ، ويعلق ابن الأثير على عملهم هذا فيقول: (فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة ، وتشكيك ضعفة العقول في دينهم .. وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه ، فكان أول من فعل ذلك أبو خطاب محمد ابن أبي زينب مولى بني أسد وأبو شاكر ميمون بن ديصان صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة) [٢] ، ومن الذين وضعوا الأحاديث المكذوبة عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي أعلن قبل قتله: (لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة) [٣] .

وقد وجهت الشعوبية هجومًا قويًا إلى «مبدأ المعاد» الذي يقصد به أن لهذه الدنيا نهاية ، وأن الله يبعث الخلق ثانية للحساب فيثاب الإنسان على إحسانه ، ويعاقب على جرائمه ، فإما إلى الجنة وإما إلى النار [٤] ، ويتصل مبدأ المعاد اتصالا مباشرًا بمبدأ الفرائض فعمدت الشعوبية إلى محاربة

(١) بدوي : من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص٨٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٢١ «طبعة ليدن ١٨٦٢ م» .

(٣) المرتضي : أمالي المرتضي ج١ ص١٢٨ .

(٤) آل كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها ص١١٥ ، ١١٦ .

الفرائض من خلال محاربتها مبدأ المعاد ، وقد استغلت الشعوبية التناسخ لنفي فكرة المعاد فقالت: (أن الأرواح تتناسخ من شخص إلى شخص وأن الثواب والعقاب في هذه الأشخاص) [١] وقد ذهبت في فلسفة موضوع الثواب والعقاب من خلال قولها بالتناسخ فادعت « أن أرواح أهل الخير إذا خرجت دخلت أبدان خيرة فاستراحت ، وأرواح أهل الشر إذا خرجت تدخل أبدانا سريرة فيتحمل عليها المشاق) [٢] وقد ذهب بعض الفرق الغالية في تأكيد عاقبة الأرواح في هذه الحياة عن طريق تناسخ روح الإنسان في الحيوانات فقالوا ـ أن عقوبة الأرواح بقدر ما اقترفته من آثام فإذا كان الميت ظالما فإن روحه حين يموت تحل في جسد سائمة أو فأر أو وحش وإذا كان حميد السيرة فإن روحه في جسد رجل تقي أو ملك ـ [٣] .

وذهبت الشعوبية إلى توكيد فكرة العقاب في هذه الدنيا فوضعت الفرضيات الخيالية ، واستعملت الأرقام الموهومة (وأما الكفار والمشركون والمنافقون والعصاة .. فينتقلون في الأجساد والأبدان المشوهة الموحشة الممسوخة عشر آلاف سنة بين الفيل والجمل ومما هو أكثر منهما وأقل إلى البقة الصغيرة) [٤] .

وقد استغل الغلاة التأويل لإلغاء فكرة الجنة والنار فقالوا ـ أن الدنيا لا تفنى وأن الجنة هي التي تصيب الناس من خير .. وأن النار هي التي تصيب الناس من شر ـ [٥] وبذلك ألغوا فكرة المعاد ومن أجل تأكيد إلغاء

(١) الشهرستاني : ج١ ص٢٠٢ ـ ٢٠٣ .
(٢) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص٧٦ ـ ٧٧ .
(٣) انظر بيان الأديان ص٢٩ والأشعري القمي : المقالات والفرق ص ٤٩ .
(٤) الأشعري القمي : المقالات والفرق ص٤٩ «تحقيق محمد جواد مشكور طبعة طهران ١٩٦٣م»
(٥) الشهرستاني : الملل والنحل ج٢ ص١٦ .

فكرة المعاد ذهبت الشعوبية إلى القول بدوام الحياة وعدم فنائها فقالت: (أنه لا تناهي للعام وأن النفس تتردد في الأجساد أبدًا) [1] وأولت الموت مدعية أنه يحصل للأجساد فقط أما الأرواح (فتنتقل بالموت من جسم إلى جسم، وثمة بعث مستمر في المجري الطبيعي للحياة الدنيا) [2]. واستعلمت الفرق الغالية التأويل لهدم مبدأ الفرائض فقالوا: (لكل ركن من أركان الشريعة تأويل .. فزعموا أن معنى الصلاة وموالاة إمامهم، والحج زيارته وإدمان خدمته، والمراد بالصوم: الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام، والزنا عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق، وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا في ذلك قوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] وحملوا اليقين على معرفة التأويل)[3].

واستهدفت الشعوبية من هجومها على مبدأ الفرائض وهو المبدأ العلي للإسلام وإباحتها المحرمات المختلفة هدم المجتمع الإسلامي لأن هذا هدم يؤدي إلى فقدان الإسلام القوة الحامية له من محاولات التشويه والهدم وقد أدركت الشعوبية أهمية هذا المبدأ فعملت على هدمه في غير أداة فأنكرت المعاد فألغت بذلك فكرة الجنة والنار فأزالت فكرة الخوف وعقاب الآخرة وبذلك فتحت المجال للفسق والمجون . وإلى جانب التحلل من الفرائض وإباحة المحرمات ذهبت فرق غالية إلى القول بالجبرية وادعت أنه لا فعل ولا عمل لأحد غير الله ونسبة الأعمال إلى العباد على وجه المجاز كما يقال

(١) ابن حزم : الملل والأهواء والنحل ج١ ص٩١ .
(٢) فلهاوزن : الخوارج والشيعة الترجمة ص٢٤٨ .
(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٧٨ .

زالت الشمس) [1] وفي هذا توكيد على عدم أهمية القيام الفرائض وعدم الاهتمام من اقتراف الموبقات حيث لا قدرة ولا إرادة للإنسان فيما يفعل .

وقد اهتمت الشعوبية اهتمامًا خاصًا بموضوع الإمامة بمفهومها الديني والسياسي فعمدت فرق غالية كثيرة إلى إخراج الأئمة من نطاق إنسيانيتهم بإضفاء صفة الربوبية عليهم فقالوا : (أن الأئمة أنوار من نور الله تعالى وأبعاض من أبعاضه) [2] .

واستغلت بعض الفرق الغالية الحلول لنقل الألوهية إلى الأئمة بدعوى الجزء الإلهي يحل فيهم [3] وعلى هذا الأساس خاطب عبد الله بن سبأ الإمام على «عليه السلام» قائلًا: (أنت خالقنا ورازقنا وأنت محيينا ومومتنا) [4] وقد عبثت الشعوبية بالإمامة وتلاعبت بها وفقًا لأغراضها تارة تجعل من الإمام إلها وتارة تجعل منه نبيا مرسلا ويعلق الخياط المعتزلي على غلوهم هذا قائلًا: (وغلت في إمامها وأفرطت في وصفه فبعضهم زعم أنه إله وبعضهم زعم أنه الواسطة بين الله وخلقه وبعضهم زعم أنه رسول وبعضهم أنه نبي) [5] .

واستغلت الفرق الغالية الالتفاف حول الإمامة للهجوم عليها فأظهر عبد الله بن سبأ (الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان وتبرأ منهم) [6] من خلال تظاهره بالتمسك بإمامة الإمام علي ادعى أن الإمام علي أمره

(١) الرسيعني : مختصر الفرق بين الفرق ص١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٢) المقدسي : البدء والتاريخ ج٥ ص١٢٩ «تحقيق كلمان هوار» .

(٣) الشهر ستاني : الملل والنحل ج٢ ص١١ .

(٤) المقدسي : البدء والتاريخ ج٥ ص١٢٥ .

(٥) الخياط : الانتصار ص١١٦ .

(٦) الأشعري القمي : المقالات والفرق ص٢٠ .

بذلك[1] من أجل تشويه موقف الإمام علي والتسلل من خلاله للهجوم على الخلفاء الراشدين .

واستغلت فرق غالية أخرى التأويل للطعن في إمامة الخلفاء الراشدين فزعموا (ان أبا بكر وعمر وعثمان .. لم يزالوا منافقين في حياة الرسول وأنه قد نزل في نفاقهم وعداوتهم لله ورسوله آي كثير منه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٧] ومنه ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] فادعى الغلاة أنها نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان) [2] وقد استغلت فرقة الحفصية التأويل للهجوم على الإمام على [3] كما ذهبت فرقة الكاملية للطعن بالخلفاء الراشدين كافة من خلال تظاهرها بالولاء للإمام علي رضي الله عنه فقالت: (أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي وكفر علي بتركه قتالهم) [4] ، وأنشد بشار بن برد الذي ذهب مذهب الكاملية في ذم الخلفاء الراشدين :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصحبينا [5]

وقد شعرت الفرق الغالية أنها في حاجة إلى تفسير صحة إمامة العدد الكبير من الأئمة المفتعلين الذين ادعتهم فوجدت في القول بالتناسخ وسيلة ناجحة لتبرير ذلك فقالت: « أن الأئمة عندهم واحد وإنما هم منتقلون من بدن إلى بدن» ،وهكذا طعن الغلاة في مبدأ الإمامة الاثنى عشرية كما طعنوا

(١) المصدر السابق ص٢٠ .

(٢)الخياط : الانتصار ص١٠٢ .

(٣) انظر الصفحات السابقة المتعلقة بمبدأ التأويل ص٥٩ ـ ٦٦ .

(٤) البغدادي : الفرق بين الفرق ص٣٥ .

(٥) البغدادي : الفرق بين الفرق ص٣٥ .

في هذا المبدأ بمفهومه السياسي .

من هذا العرض يتبين لنا أن الشعوبية وبخاصة الشعوبية الدينية قد وجهت حملة مركزة إلى مبادئ الإسلام وعملت على تشويهها إلا أنها لم تستطع هدمها وإن استطاعت نشر آراء غربية علقت بالإسلام وكادت أن تخنقه مرات ، إلا أن قوة الإسلام ومتانة مبادئه وانسجامها مع العقل واستنادها إلى القرآن الذي تعهد الله بحفظه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ مكنت الإسلام من مقاومة الآراء الغربية وصد الهجمات العنيفة التي وجهت إليه فبقي الإسلام خالدًا .

٢ ـ إزالة السلطان العربي وتشويه الحضارة العربية :

وجهت الشعوبية العنصرية هجومًا متصلًا من أجل إزالة السلطان العربي ، فكانت عمليات اغتيال الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وحركات المختار وابن الأشعث التي اشترك فيها الموالي بأعداد كبيرة [١] ، وتمرد الراوندية والمقنع وسنباذ وبابك الخرمي والمازيار والافشين وغيرها من الحركات المعادية تمثل المحاولات العملية لإزالة السلطان العربي ، وكانت ترافق تلك المحاولات عمليات طعن وتشويه في الحضارة العربية وإشادة بحضارات الأمم الأخرى ولاسيما الحضارة الإيرانية .

إن الحضارة العربية هي ما أنتجه العقل العربي عبر حياته من شعر وخطابة ومعتقدات دينية وعمران ونظم سياسية ، وما اعتز به العرب من مثل كالكرم والشجاعة والوفاء وحفظ الأنساب واحترام المرأة والنجدة وحرمة الجار ، وأن روح هذه الحضارة الإسلام ومادة هذه الروح العرب ولذلك وجهت الشعوبية هجومها إلى الإسلام وإلى العرب وكانت عمليات الهجوم هذه تسير في خطين متوازيين حينًا ومتداخلين حينًا آخر وفي ذلك يقول الجاحظ: (فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاء ذلك من الشعوبية فإذا أبغض شيئا أبغض أهله وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف) [٢] .

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص٢٩٣.

(٢) الجاحظ : كتاب الحيوان ج٧ ص٦٨ . تحقيق محمد النعساني الحلبي القاهرة ١٩٠٧ م .

لقد تناولت الشعوبية العنصرية حضارة العرب بالتشويه والطعن فركزت هجومها على الشعر العربي الذي هو (ديوان العرب) [1] كما قال الرسول الأكرم ﷺ، وكانت عملية الهجوم على الشعر قد ذهبت إلى وضع الشروح الغريبة لأشعار العرب كما فعل أبو عبيدة في كتاب النقائض وكما فعل الهيثم ابن عدي في كتبه ، وذهب آخرون إلى فساد الشعر عن طريق الوضع فكان حماد الراوية (مشهورًا بالكذب في الرواية وعمل الشعر وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ودسه في أشعارهم حتى أن كثيرًا من الرواة قالوا: قد أفسد حماد الشعر لأنه كان رجلًا يقدر على صنعته فيدس في شعر كل رجل ما يشاكل طريقته فاختلط الصحيح بالسقيم) [2] ويعلق الأصفهاني على خطورة ما فعله حماد الراوية قائلًا: (وقد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبدًا ، فقيل له: وكيف ذلك أيخطئ في روايته أم يلحن؟ قال : ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك) [3] وكذلك عمل خلف الأحمر على إفساد الشعر عن طريق الوضع وفي ذلك يقول ابن النديم فيه: (كان شاعرًا يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم) [4] .

وقد تناولت الشعوبية العنصرية بالتشويه خطب العرب وفصاحتهم

(١) أبو زيد القرشي : جمهرة أشعار العرب ص١٢ . «طبعة بولاق القاهرة ١٣٠٨ هـ» .

(٢) المرتضي : أمالي المرتضي ج١ ص١٣٢ .

(٣) الأصفهاني : الأغاني ج٥ ص١٦٣.

(٤) ابن النديم : الفهرست ص٨٠ .

وكلامهم الذي تعتز به العرب أيما اعتزاز فقالت أول الأمر أن (الخطابة شيء في جميع الأمم وبكل الأجيال) [١] وادعت الشعوبية بعد هذا قائلة (والخطابة في جميع الأمم .. حتى الزنج مع العثارة ومع فرط الغباوة تطيل الخطب) [٢] وبعد هذا تهجمت الشعوبية على العرب فقالت: (ولطول اعتيادكم مخاطبة الأبل جفي كلامكم وغلظت مخارج أصواتكم حتى كأنكم تخاطبون الصمان إذا كلمتم الجلساء) [٣] .

وكذلك وجهت الشعوبية هجوما إلى شجاعة العرب وكأنها أرادت أن تثأر لاندحارها في معارك القادسية ونهاوند وغيرها فراحت تنتقد خطط العرب العسكرية قائلة: (وكنتم تتساندون في الحرب وقد علم أن الشركة ردية في ثلاثة أشياء في الملك والحرب والزوجة) [٤] وادعت الشعوبية أن العرب لا تعرف (البيان ولا الكمين ولا الميمنة ولا الميسرة ولا القلب ولا الجناح ولا الساقة ولا الطليعة ولا النفيضة) [٥] . كما انتقدت الشعوبية أسلحة العرب مدعية أنهم لا يعرفون (الرتيلة [٦] ولا العرادة ولا المجانيق ولا الدباب ولا الخنادق) [٧] وذهبت الشعوبية إلى فرض الأحكام البعيدة عن الواقع فادعت أن العرب لا تقاتل بالليل [٨] .

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص١٠ .
(٢) المصدر السابق ج٣ ص١٠ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص١١ .
(٤) المصدر السابق ج٣ ص١١ .
(٥) المصدر السابق ج٣ ص١٢ ـ ١٤ .
(٦) الرتيلة : آلة تقذف الحصاة على العدو وتصيب الوجوه انظر البيان والتبيين حاشية ج٣ ص١٢ .
(٧) المصدر السابق ج٣ ص١٢ ـ ١٤ .
(٨) المصدر السابق ج٣ ص١٢ ـ ١٤ .

وأدركت الشعوبية اعتزاز العرب بالكرم وفخرها به فعملت على الطعن بهذه الصفة وتشويه أهميتها ، فألف سهل بن هارون الرسائل في ذم الكرم والإشادة بالبخل وكان أشهر تلك الرسائل الرسالة التي عملها للحسن بن سهل والتي مدح فيها البخل ورغبه فيه [1] .

وكذلك أدركت الشعوبية أن المرأة عند العرب محل اعتزاز وإكرام وموضع تفاخر وإكبار فعمدت إلى تشويه مكانتها والإساءة إلى سمعتها فوضعوا القصص البذيئة للطعن بالمرأة العربية ولفقوا الأخبار لتشويه مكانتها فادعوا أن العرب (يغير بعضها على بعض فرجالها موثوقون في حلق الأسر . ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل .. وقد وطئن كما توطأ الطريق [2] المهيع [3]) ولم تقف الشعوبية عند هذا التزوير والبهتان بل سلكت طريقا آخر لتشويه مكانة المرأة العربية والحط من منزلتها فدعت إلى إباحة المحرمات وإشاعة المجون في الغلمان ودعت إلى نكاح الأخوات والبنات [4] كل ذلك من أجل انتقاض المرأة واحتقارها وإنزالها إلى حضيض الرذيلة وجعلها رخيصة مبتذلة .

(١) ابن النديم : الفهرست ص١٨٠ .

(٢) الطريق المهيع : الواسع الواضح انظر لسان العرب ج٨ ص٣٧٨ طبعة بيروت .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص٤٠٥ . «تحقيق أحمد أمين وجماعته» .

(٤) الطبري ج١٠ ص٤٢ . الطبعة الحسينية .

٣ ـ إحياء الحضارة الإيرانية وإعادة السلطان الفارسي :

لقد أدركت الشعوبية أن أهدافها الثلاثة أهداف متكاملة متلازمة ، وأن تحقيق أي هدف منها يؤدي إلى تحقيق الهدفين الآخرين ، ولذلك كانت الشعوبية تعمل في أكثر من مجال وتتبع أكثر من أسلوب من أجل الوصول إلى أهدافها ، فإلى جانب هجومها على الإسلام والحضارة العربية وتآمرها على السلطان العربي كانت تعمل على إحياء معالم الحضارة الإيرانية فهي في الوقت الذي تطعن في العرب وحضارتهم وتقول أنه لم يكن للعرب ملك وليست لديهم فلسفة ولا علم تعمل على وضع الكتب والرسائل عن الحضارة الإيرانية وتدفع الهبات الكبيرة من أجل ترجمة الكتب من الإيرانية إلى العربية كما عمدت إلى إحياء المراسيم الإيرانية القديمة والاحتفال بأعياد إيران القومية [١] .

وعملت الشعوبية العنصرية على الإشادة بالحضارة الإيرانية القديمة وإحياء معالمها وإظهارها بصورة متقدمة ولم تقف الشعوبية عند هذا الحد بل ذهب عدد من الشعوبيين أمثال عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وعبد الحميد الكاتب وغيرهم إلى تأليف الكتب المختلفة ونسبتها إلى مؤلفين قدامى [٢] وبعد ذلك دعت الشعوبية إلى الرجوع إلى هذه الكتب بحجة أن فيها كمال البلاغة والأدب والعلم والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة [٣] .

---

(١) انظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ص٣١٦ تحقيق مصطفى السقا وجماعته وتراث فارس الترجمة ص١٠١ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص٢١ .

(٣) انظر البيان والتبيين ج٣ ص١٠ .

وعملت الشعوبية على التمسك بالديانات الثنوية ـ الزرادشتية والمانوية والمزدكية ـ باعتبارها ديانات إيرانية [1] ، وفي ذلك يقول «دي لا فيدا»: (ومنهم من وجد في المانوية تراثا قوميًا خلفه الأدباء فيجب الحرص عليه وتعهدت .. لكي يقارنوا تراث العرب ودينهم بما خلفه لهم الآباء من تراث ودين) [2] .

وقد أولت الشعوبية اهتمامًا كبيرًا للمؤلفات والآثار الإيرانية القديمة وعملت على ترجمتها أكثر من مرة فنجد كتاب «الخداينامه» في صور ثمانية[3] مما يدل على اهتمام الشعوبية بهذا الكتاب لما ينطوي عليه من أساطير وتمجيد للحضارة الإيرانية وبخاصة سيرة الملوك الفرس ، كما ترجموا كتاب «اختيار نامه» الذي يتناول سيرة الفرس وأخبارهم وكتاب «آيين نامه» الذي يبحث في المراسيم والتقاليد الإيرانية وكذلك كتاب «مزدك» أكثر من مرة[4] .

كما افتخرت الشعوبية بآثار الفرس العمرانية فوضع الشعراء الشعوبيون القصائد في ذلك ومنها قول أبي نواس يفاخر بالفرس ويدعو إلى الإشادة بهم :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس

تدار علينا الراح في عسجدية ... حبتها بألوان التصاوير فارس

(١) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ص٦٤ .

(٢) عبد الرحمن بدوي : من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص٣٤ .

(٣) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ص٦٦.

(٤) المصدر السابق (ص٦٦) .

قرارتهـــا كـــسرى وفي جنباتهـــا مهاتدريها [1] بالقسي الفوارس

وقال أبو نواس مشيدًا بآثار الفرس :

ألم تـــر مـــا بنـــي كـــسرى وســـابور لمـــن غـــبرا
منـــازه بـــين دجلـــة والـــ فـــرات تفيـــأت شـــجرا [3]

وافتخرت الشعوبية بالشخصيات الإيرانية من أجل توجيه الأنظار إليها وحملها لتزعم حركة المقاومة ضد العروبة ، فنسبت فرقة الراوندية الألوهية إلى أبي مسلم الخراساني وادعت أنه لم يمت وأنه سيعود فيعيد الملك للفرس [4] ، وأنشد الشعراء الشعوبيون يشيدون بمواقف الفرس وادعوا أن الفرس هم الذين أسقطوا الدولة الأموية وأقاموا الدولة العباسية وفي ذلك يقول بشار بن برد :

إنـــا ملـــوك لم نـــزل في ســـالفات الحقـــب
حتـــى رددنـــا الملـــك في أصـــل النبـــي العـــربي [5]

كما افتخر الشعراء بالبرامكة وقالوا في مدحهم الشيء الكثير ومما قاله الرقاشي في رثائهم :

إن يغـــدر الـــزمن الخـــؤون بنـــا فقد غدر الزمان بجعفر ومحمد
حتـــى إذا وضـــح النهـــار تكـــشفت عن قتل أكرم هالك لم يلحد

(١) تدريها : تختالها لتصطادها من غير أن تشعر ، انظر ديوان أبي نواس الحاشية ص (٣٧) تحقيق الغزالي .
(٢) ديوان أبي نواس (ص٣٧) .
(٣) المصدر السابق (ص١٢٦ ، ١٢٧).
(٤) انظر البغدادي : الفرق بين الفرق (ص١٥٥) .
(٥) ديوان بشار (١/ ٣٣٧) تحقيق طاهر بن عاشور .

يا آل برمك كم لكم من نائل وندى كعد الرمل غير معرد[1]

وبذلت الشعوبية جهودًا متصلة في سبيل إعادة السلطان الفارسي فقامت باغتيال الخلفاء الراشدين الثلاثة واشتركت في حركات المختار وابن الأشعث والخوارج التي استهدفت القضاء على سلطان الأمويين ، وساهمت في الدعوى العباسية واشتركت في قيامها وعملت بعد ذلك على محاربتها عن طريق إثارة الفتن بين العلويين والعباسيين وعن طريق الاشتراك مع الخوارج كما قامت في ثورات مباشرة ضد الدولة العباسية [2] . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمدت الشعوبية إلى استعمال التنجيم واستغلاله لإصدار الأحكام التي تؤكد زوال السلطان العربي وعودة الملك إلى الفرس فقالت: (.. إن القرن الثامن عشر من مولد محمد ﷺ يوافق الألف العاشر وهو المشتري .. وأنه سيخرج إنسان يعيد دولة المجوس ويستولي على الأرض كلها ويزيل ملك العرب) [3] ولكي تضفي الشعوبية على هذا النوع من التنجيم قوة دينية ادعت: (أن زرادشت قال لكشتاسف: أن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ثم يعود إلى الفرس ثم يزول عن الفرس إلى العرب ثم يعود إلى الفرس) [4] وذهبت الشعوبية لتأكيد تنجيمها وتصويره تصويرًا مقبولًا أن عينت زمنًا معينًا لزوال السلطان العربي - بزعمها - فقررت: (وزعم زرادشت أن الملك يعود إلى العجم تمام الألف وخمسمائة سنة من وقت ظهور زرادشت) [5] .

---

(١) الطبري (٣/ ٦٨٦) طبعة ليدن .

(٢) انظر الطبري الجزء العاشر (٨٠ - ١٣٠) والدينوري : الأخبار الطوال (٣٠٤ - ٣١٢) والجهشياري : الوزراء والكتاب (٣١٦) . وتاريخ اليعقوبي (٣/ ١٣٣) .

(٣) البيروني : الآثار الباقية (٢١٣) .

(٤) البغدادي : الفرق بين الفرق (١٧٢) .

(٥) المصدر السابق (١٧٢ ، ١٧٣) .

وقد أسفرت جهود الشعوبية هذه عن قيام نواة للسلطان الفارسي وذلك بقيام « الإمارة الطاهرية » التي كان قيامها بداية انهيار الدولة العربية وبداية اتساع النفوذ الفارسي وخطوة عملية في سبيل الوصول إلى هدف الشعوبية الكبير وهو إزالة السلطان العربي وعودة السلطان إلى الفرس .

كما حققت الشعوبية هدفها في تشويه الحضارة العربية والطعن فيها والإشادة بحضارة الفرس وإحياء معالمها لا سيما وأن عملية التدوين كانت في إبان نشاط الحركة الشعوبية وفي ذلك يقول الدوري: (فإن الشعوبية وجهوا جهودهم إلى تشويه آثار العرب وتاريخهم في عصر التدوين ، ونسبوا إلى دول فارس القديمة خاصة ما لا يقره التاريخ من مدنية وآثار ، ولم يقتصروا على التاريخ بل تناولوا الأدب .. ولقد كنا نظن أن الشعوبية قصروا الهجوم على العصر الجاهلي مستغلين الناحية الدينية ليظهروا عرب الجاهلية بمظهر البداوة الساذجة ... ولكن ظهر لنا أنهم لم يحفلوا بما للإسلام من حرمة ولم تسلم منهم فترة ولم ينج أحد)[1] .

(١) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام (١٢) الطبعة الأولى .